الفصل الرابع عشر

فرص جديدة

أخبـرت هيلينا بأنني سـأبحث عن مـكان أعيش منه في منطقة كوينـز لأكون قريبة من كليّتي وعملي الأسـبوعي. صـحيح أن بقائي معها سـيكون مريحًا أكثر لي، لكني شـعرت بأنني عـبء عليها. هـي لم تلمح لي أبـدًا، فإنني لا أريد أن أزعجها، لكني شـعرت أننـي في النهاية سأدمر صداقتنا إن بقيت معها.

«لكني سـأظل آتـي لرؤيتك في الأيام التي أذهب فيها للمركز العربي الأمريكي لحضـور حصة اللغة الإنجليزية».

حاولـت هيلينا أن تقنعنـي بالبقاء، وقالت لي: «لقد اعتدت أنـا وابنتي أن نراك كل يوم، وسوف نشتاق إليك ولا تنسي أنني أرحب بك دائمًا في منزلي».

وفي عطلة نهاية الأسـبوع تلك، وبعد أن أنهيت التدريس أخبرت الشـيخ بأنني أبحث عن زميلة سكن. وهذا كل ما أخبرته به، فمن غير الضروري أن يعرف أنني أكافح كثيرًا لأقف على قدميّ، واتضـح أنه يعرف سيدة اسـمها (فريدة) تعيش في شقة تحتوي على غرفتي نوم، وقد مات زوجها في الآونة الأخيرة، ومن المحتمل أنها تشعر بالوحدة، وهي تعيش بمفردها هناك. لـم أكـن متأكـدة أن العيش مع شـخص غريب فكرة جيـدة، لكن لم يكن لدي خيـارات أخرى فـي تلـك اللحظة. وبعد أن تحدث الشـيخ محمد مع فريدة وافقت على أن تلتقين بي وبالشـيخ وصديقه لمناقشة إمكانية أن أستأجر غرفتها الإضافية.

جلس أربعتنا في غرفة المعيشـة في شـقة فريدة لمناقشـة التفاصيل، فأوضحت لهم أن دخلـي محـدود، ولا يمكننـي أن أدفـع الإيجار بعد، لكني سـأدفعه حالما أجد عمـلاً آخر. وما أثـار دهشـتي وارتياحـي أن فريدة لـم تمانع أبدًا، وطمأنتني بأن لا مشـكلة فـي ذلك، فكل ما تريده هو شخص تتحدث معه. وبعد مدة قصيرة من هذه المحادثة انتقلت للعيش هناك. كنت أنـا وفريـدة نتناوب على طبخ أطباق طعام تقليدية. وخلال النهـار كنت أذهب للمركز العربي الأمريكي لتعزيز الأسـرة؛ لأحضـر دروس اللغة الإنجليزية، وأعمل قليلًا في صالون هيلينا، ثم

أتوجه للكلية في الليل، وكنت في عطل نهاية الأسبوع أذهب إلى المسجد لأعطي حصص قرآن لمجموعة فتيات أفغانيات تتراوح أعمارهن بين العاشرة والخامسة عشرة، فكنا نجلس مع بعض لنقرأ، وأصححهن عند الضرورة. وهكذا أصبحت الأمور تستقر أكثر.

وفي أحد الأيام سألتني فريدة إن كان لي أي أقارب في نيويورك، فأخبرتها بأن لدي أخًا يعيش في مكان قريب، ما أثار السؤال المحتم: «لماذا لا تعيشين معه؟». ترددت لحظة في أن أخبرها بأي معلومات أخرى، فلم أعرف كيف ستكون ردة فعلها. لكنها كانت تدعمني كثيرًا إلى الآن، لذلك شعرت بالأمان، دون سبب منطقي فما لبثت أن أفشيت لها جميع تفاصيل ما حدث بيني وبين وسام، وكيف ناداني بالعاهرة، وطردني من شقته دون أن يهتم أين سأذهب. كانت فريدة صامتة على نحو غريب، فقد توقعت أن تعبر عن تعاطفها نحوي، لكنها لم تقل شيئًا من هذا القبيل. لم تقل شيئًا في تلك اللحظة، لكني شعرت بأن شيئًا قد تغير بيننا.

وبعد شهرين تقريبًا أحسست بأن توتر فريدة بدأ يزداد، فقد أصبحت تزعجني، وتسألني أين كنت طوال اليوم، معتقدة أنني أعمل طوال اليوم، وأجني مالًا أكثر مما أظهره. وكانت تعتقد أنها إذا سألتني أسئلة بالشكل الصحيح فيمكنها أن تكتشف كذبي، ثم تطلب أن أدفع لها فورًا. بقيت أخبرها بأنني لا أستطيع دفع مبلغ الإيجار الكامل الذي تطلبه، لكني سأقدر على ذلك عما قريب. ثم أصرت أن أمضي أوقات المساء في غرفة المعيشة أتحدث معها، كنت أعرف أنني مدينة لها؛ لأنها قدمت لي مكانًا أمكث فيه، لكن مع كل هذا الاضطراب في حياتي لم أقدر على تحمل ثرثرتها الفارغة كل ليلة، فقد كان علي أن أدرس، والأهم من ذلك كنت أحتاج إلى أن أنفرد بأفكاري، وأعزل كل الضجيج الخارجي لأحاول أن أكتشف ما سأفعله بحياتي الجديدة هذه التي كافحت كثيرًا لأبنيها.

كان علي أن أجد طريقة للاسترخاء بعد كل هذا الاضطراب في الأشهر القليلة الماضية. أخبرتني إيمان، مساعدة المديرة في المركز العربي الأمريكي، عن حفلة ليلة السبت، سيحتفلون فيها بمرور عام واحد على إصدار صحيفتهم باللغة العربية. كان علي أن أدفع ٢٥ دولارًا، لكن لم يكن هذا المبلغ كثيرًا مقابل أن أمضي ليلة أستريح فيها، وأضحك مع أناس، وأتظاهر بأنني لا أفكر في شيء إلا المقبلات التي سآكلها في تلك الليلة. تجمع أناس من جميع أنحاء الولايات المتحدة على متن السفينة، وأخذت معي كاميرا صغيرة، والتقطت بعض صور

لهم وهم يتحدثون، ويرقصون. لاحظ مدير الأخبار في الصحيفة أنني ألتقط صورًا، فطلب مني أن أرسل له نسخًا بالبريد الإلكتروني.

بقيت في الحفلة إلى ما بعد الساعة ١:٠٠ صباحًا، ثم مشيت مع صديقتي (أفراح) إلى مترو الأنفاق. كان علي أن أركب قطارين، وعندما وصلت إلى شارع (فليشنج) كان علي الانتقال إلى الحافلة رقم ٢٥. لكن كانت تلك الحافلة تأتي كل ساعتين فقط؛ لذلك علقت حتى الساعة ٢:٣٠ صباحًا في موقف الحافلات المظلم الذي يملؤه هدوء مخيف، أردت أن أستقل سيارة أجرة، لكن لم يكن معي أي نقود، فقررت أن أمشي، كان ذلك الشارع مظلمًا أكثر من الذي قبله، فقد كانت الأشجار مصفوفة على جانبي الطريق تلوّح بأذرعها المظلمة نحوي، خلعت حذائي، وبدأت أركض، وبعد برهة رأيت سيارة شرطة، فتوقفت عن الركض؛ حتى لا يلاحظ ضابط الشرطة، ويتساءل: لماذا أركض، وماذا فعلت، فجعلني أركض، لكن عندما تعدوني بدأت بالركض مجددًا.

وأخيرًا وصلت إلى الشقة عند الساعة ٤:٣٠ صباحًا، ففتحت الباب، لكني اكتشفت أنه مغلق بسلسلة من الداخل. لففت أصبعي حول السلسلة لأفكها، لكن دون جدوى. لم تجبني فريدة، عندما ناديت عليها، فجلست على الأرض، ووضعت رأسي على ركبتيّ ونمت ساعتين. وعند الساعة ٦:٣٠ صباحًا فتحت فريدة الباب، والتقطت صحيفتها الصباحية، ثم قالت لي بلا مبالاة:

«بعد منتصف الليل ممنوع أن يدخل أحد بيتي أو يغادره».

«لكني أخبرتك بأنني ذاهبة إلى حفلة».

«لا يهمني ذلك».

انتظرت حتى استحمّت وغادرت الشقة ثم دخلت، وبعد ذلك ذهبت لأتمشى لأصفي ذهني. لكن عندما رجعت إلى الشقة وجدت اثنتين من حقائبي محزومتين وموضوعتين على الرصيف. كانت حقيبتي الثالثة لا تزال في غرفة نومي، لكن أغلقت فريدة الباب، وقالت لي:

«أريد مبلغ الإيجار الآن، فأنا أعرف أنك تعملين طوال اليوم!».

«أنا لا أعمل طوال اليوم، وأنا لم أتمكن من إيجاد عمل براتب جيد. لكن خذي، ها هي نقودك».

كنت أدخر بعض النقود لأعطيها إياها، فسلمتها ٣٠٠ دولار معتقدة أن ذلك سيهدئ من حنقها علي، لكني كنت مخطئة.

«لماذا تقفلين غرفتك طوال الوقت؟».

«لأنك دائمًا تدخلين هناك، وتعبثين بأغراضي!».

«إنها شقتي، ويحق لي أن أدخل تلك الغرفة متى أردت، ولماذا لا تريدينني أن أرى أغراضك؟ هل أنت تخبئين مخدرات في الغرفة، أليس كذلك؟».

«مخدرات؟!».

كنت غاضبة فعلًا منها هذه المرة، فقلت لها:

«إن كان معي مخدرات يا فريدة، فسوف أستخدمها أو أبيعها، لكني لن أخبئها في شقتك!».

«لا عجب أن أخاك طردك من منزله! أنت امرأة سيئة!».

لم أكن متأكدة كيف أرد عليها، لذلك قلت لها: «حسنًا، شكرًا لك»، ثم غادرت.

أخذت أغراضي إلى متجر بقالة قريب، فقد كنت أعرف المالك، رجل يمني جدير بالثقة، فسمح لي بأن أترك حقائبي في الطابق السفلي لمتجره إلى أن أجد مكانًا جديدًا أعيش فيه. بعد ذلك اتصلت بهيلينا، وسألتها إن كان بإمكاني البقاء عندها بضعة أيام فقط لم أرد أن أكون عبئًا عليها، لكن لم أتحمل فكرة أن أعيش في مترو الأنفاق مرة أخرى.

عندما وصلت إلى شقتها أمسكت هيلينا يدي، وسحبتني إلى المطبخ، وأخبرتني بألا أقلق، فأنا سأجد عما قريب مكانًا جديدًا أعيش فيه، ويمكنني أن أبقى عندها كما يحلو لي. وأخبرتني أيضًا بأن الأمور ستتغير، لكن علي أن أصبر، وألا أيأس، فأنا أحضر دروسي في الكلية ولدي عملي في الصالون والمسجد.

في صباح يوم السبت ذهبت إلى المسجد لأعطي دروسًا. كانت حصتي تزداد شعبية كل أسبوع، وبدأت بعض الفتيات اللواتي كنّ يحضرن حصصًا أخرى يحضرن حصتي، وبعد أن مضى على عملي في المسجد ثلاثة أشهر حضرت للحصة، ولاحظت أن بعض الفتيات

يتصرفن بخوف، كنّ يتصرفن بفتور نحوي، وينظرن حولهن بقلق، ويبتعدن مسافة آمنة عني، فسألتهن:

«ما خطبكن؟».

أسرعت إحدى الفتيات نحوي، وحضنتني، قائلة:

«لا أهتم بما يقلن! تلك المعلمات الأخريات لا يحببنك، وقد طلبن منا ألا نتحدث معك، لكني لا أهتم! جميع المعلمات يا مس فدوى، يشعرن بالغيرة منك؛ لأننا أخبرنهن بأننا نحبك كثيرًا».

لاحقًا في ذلك اليوم أخبرني الشيخ على انفراد بأنهم لم يعودوا يحتاجون إلى خدمات التدريس التي أقدمها، واعتذر لي بالعربية قائلًا:

«لا أعرف ما حدث، لكنهم لا يريدونك أن تبقي».

«لكنك الشيخ، وأنت من تتخذ القرارات».

«أنا فعلًا آسف، لكنهم يعملون هنا منذ وقت طويل».

وهكذا أصبحت عاطلة عن العمل مرة أخرى. رجعت إلى شقة هيلينا، وأغلقت باب غرفتي، وغطيت عينيّ بيديّ مبتعدة عن العالم كله بضع دقائق. لم أكن أجني الكثير من المال في المسجد، لكني كنت أعتمد على الـ٢٥٠ دولارًا كل شهر.

لم أستطع البقاء في الغرفة أبكي للأبد، وكان علي النهوض والبحث عن طريقة جديدة لجني المال، فقد أردت بشدة أن أشعر بأنني أحرز بعض التقدم، لكني كنت أهزم في كل مرة.

وبينما أنا جالسة أتأمل في خياراتي رن هاتفي، لكني لم أرغب في أن أجيب، فقد كان من المستحيل أن يبدو صوتي متفائلًا. لكن ماذا لو كانت مكالمة هاتفية مهمة؟ لذلك أرغمت نفسي على تصنّع ابتسامة، وفتحت سماعة الهاتف. شعرت بالذهول والراحة عندما سمعت أول أخبار جيدة منذ شهور. كانت المتصلة هي إيمان، مساعدة المدير في المركز العربي الأمريكي لتعزيز الأسرة، وقد اتصلت لتعرض علي فرصة العمل بموجب عقد مع برنامج أمريكوربس (AmriCorps) الحكومي مدة سنتين لأعلم اللغة العربية للبالغين، فذهبت بمترو الأنفاق إلى المركز، وأعطتني إيمان تذكرة الطائرة.

«سوف تقابلك صفاء ونضال غدًا عند الساعة ١١:٠٠ صباحًا في مطار لاجواردیا، وستذهبن جميعكن إلى مؤتمر في مدينة ديترويت مدة عشرة أيام. لقد حجزت لك ولصفاء في فندق في الغرفة نفسها، أما نضال فستمكث في غرفة منفصلة مع أطفالها. وستلتقين جميعكن أعضاء البرنامج الآخرين.

خلال الرحلة إلى دترويت سنحت لي فرصة التعرف إلى صفاء ونضال قليلًا. كانت كلتاهما فلسطينيتين. وكان والدا نضال يعيشان في الأردن، وتعمل هي معلمة لأطفال صغار. أما صفاء فلم تكن متزوجة، وعاشت مع والديها في منطقة بروكلين، وكانت ستعمل في قسم الإدارة في المركز.

وعندما عدنا إلى نيويورك بدأت أعطي حصص لغة عربية. كتبت بعض الأسئلة لأختبر الطلاب، وأضعهم في المستوى المناسب، وألفت اختبارات في قراءة العربية وكتابتها وتحدثها. كنت أجني ٣٥٠ دولارًا فقط كل أسبوعين، لكني ابتهجت لأني أحصل على راتب ثابت مهما كان ضئيلًا فعلى الأقل يزيد هذا الراتب عما جنيته من قبل. وهكذا رتبت مواعيد الحصص لتتلاءم مع أوقات الطلاب ومع أوقات ذهابي للكلية. كان الطلاب منقسمين إلى ثلاثة مستويات، وخصصت يومين لأعطي حصصًا بعد الظهر للمبتدئين، ويومًا أعطي حصصًا مسائية للذين يتحدثون العربية، ولا يقرؤونها أو يكتبونها، ويومًا أعطي حصصًا ليلية للذين لم يستطيعوا الانضمام لصفوف أخرى.

وفي الوقت نفسه استمررت بالذهاب إلى كلية (برامسون أورت). كنت أكتسب ثقة أكبر بمهاراتي، وبدأت أتخيل نفسي أعمل بدوام كامل كمساعدة طبية، وأجني دخلًا يمكنني العيش منه، فعندئذ يمكنني ربما أن أتحمل تكاليف زيارة أطفالي من حين لآخر، بل حتى أن أجلبهم ليرونني في الولايات المتحدة، وأن أتمكن أيضًا من تحمل تكاليف العيش في منزلي الخاص، وأن يكون لدي على الأقل غرفة إضافية للأطفال، لكن كان يمكنني تخيل حدوث ذلك.

بعد أسبوعين من بدئي التدريس في المركز العربي الأمريكي ذهبت إلى متجر البقالة في منطقة كوينز حيث وضعت حقائبي. كان لدى مالك المتجر جارة من بورتوريكو ترغب في أن تأجرني غرفة في شقتها لقاء ٤٠٠ دولار شهريًّا فقط، بما في ذلك تكاليف الماء والكهرباء. كانت غرفة نوم فقط، لذلك لم يكن لدي مكان لأطبخ أو آكل في المنزل، لكنها ستفي بالغرض حاليًّا، فعلى الأقل لن أشعر بأنني عبء على هيلينا، وكانت الأمور تتحسن.

وبعد أن مضى على عملي في المركز العربي الأمريكي ثلاثة أشهر تقريبًا التقيت مصادفة في إحدى الليالي الساعة ٩:٠٠ مساء تقريبًا قبل أن أغادر المركز رئيسي في العمل، وهو رجل لبناني مسيحي اسمه (جاد). كان في ليلة واحدة فقط في الأسبوع أن أعطي درسًا للبالغين من الجالية الذين يعملون خلال النهار، وكان من المعتاد أن تُوجد عاملة نظافة في المبنى في ذلك الوقت، لكنها كانت قد اتصلت لتخبرهم بأنها مريضة، تسكع جاد حولي مقتربًا مني كثيرًا، وسألني:

«هل أنت متزوجة يا فدوى؟».

«نعم، كنت».

«كنت؟».

ابتسم لحظه السعيد، وسألني:

«ما رأيك في أن نذهب لنتناول العشاء أو القهوة؟».

«لا، فالوقت متأخر عليّ، وما بين شغلي والدراسة ليس لدي وقت».

علمت لاحقًا أنه طلب أيضًا من صفاء الخروج معه. فقد كان يجرب حظه مع الجميع، وبعد بضعة أسابيع فقط أعطيت حصة دراسية، واكتشفت متأخرة أن أحدهم ترك أقلام التخطيط غير القابلة للمحو على حافة السبورة، حيث من المفترض أن يوجد مكانها أقلام التخطيط القابلة للمحو. فأخبرت جاد معتقدة أنه سيقول لي كيف أزيل الحبر، وسينتهي الأمر عند هذا الحد، لكن بدلًا من ذلك تمتم وهو منزعج جدًّا بشيء حول شراء بخاخ، وكم سيكون هذا مكلفًا. وما حدث بعد ذلك هو أنني استدعيت لمكتب المديرة (أميرة) لأستمع لتقرير جاد الذي ذكر فيه أنني استخدمت عمدًا أقلام تخطيط غير قابلة للمحو، وأني أرفض أن أدفع ثمن بخاخ التنظيف. حاولت كالعادة أن أذعن لما قاله جاد، لكن أصبح هذا الأمر يزداد سخفًا، فلم أتمالك أعصابي، وسألته:

«لماذا قلت ذلك؟».

«أنا لم أقل إلا ما حدث».

«لا، هذا غير صحيح. لقد كذبت! أنت تعرف أنها كانت مجرد حادثة!».

أخذنـي (حازم)، وهو شـاب يمني كان يعمل موظف اسـتقبال في المركـز، إلى الرواق لأبكي بهدوء، لكن كانت هناك نافذة، وظل الطلاب يأتون، وينظرون إليّ من خلال الزجاج.

وبعـد أيـام عدة اسـتدعتني أميـرة لمكتبها، وأخبرتني علـى نحو مفاجئ بأنها سـتنهي حصصي.

«لكن عقدي مدته سنتان».

«هذا لا يهم ستنتهي حصصك في نهاية الشهر، ولن نحتاج إلى خدماتك بعد الآن».

اجتمع بعض طلابي والأغلبية كانوا من أصـل أمريكي بعدما حصـل، وذهبوا إلى أميرة ليتحدثوا معها بعقلانية.

«نحن نحتاج إلى هذه الحصة، ونحب معلمتنا، فنحن نتعلم منها الكثير!».

لكنها انفجرت فيهم، قائلة: «لقد اتخذت قراري، ولا رجوع عنه!».

نفـدت مني بسـرعة خيارات العثور على عمل مع الجاليـة العربية في نيويورك. وكان من الصعب علي بصفتي امرأة مسلمة أن أجد وظيفة في قطاع العمل الاعتيادي بعد الحادي عشر مـن أيلـول؛ لأني كنت أرتدي الحجاب. فقـد كان كثير من الناس عندما يـرون حجابي ملفوفًا حول رأسـي يتفحصون جسـدي ليروا أين أخبئ القنبلة، وكان من المسـتحيل دون معارف أن أذهب لأي مكتب، وأحصـل على وظيفة، فلم يرغب أحد في أن يكون هو الشـخص الذي يتستر علـى إرهابيـة. لذلك لم يكـن أمامي خيار إلا الاسـتمرار في البحث عن عمـل آخر مع العرب الأمريكيين، فهم لن يظنوا بي السوء بسبب ثيابي التي أرتديها.

وفـي تلك المدة تقريبًا بدأت هيلينا تعاني مشـكلات مالية خطيـرة، وكانت تخطط لبيع صالونها. لكن بالنسبة إليها كان يمكنها أن تستأجر كرسيًّا في صالون شخص آخر، أما أنا فلن أتمكـن بعـد الآن من جني الإكراميات من عملي عندها؛ ولأنني لـم أكن متأكدة أين أبحث عن عمل سـألت هيلينا إن كان بإمكانها أن تسـاعدني بالتفكير في أمكنة أخرى يمكن أن أجد فيها عملًا، فكرت لحظة، ثم أخبرتني بأنها تعرف رجلًا اسـمه (زياد) يمتلك متاجر عدة اسـمها (دنكن دونس) في نيويورك، وعرضت علي أن تتصل به، وتزكيني عنده. لم أشتغل في مثل هذه الوظائـف من قبل، لكني قررت أن أجربها. فالتقيت زياد في متجره في بروكلين، الذي خيّرني

أن أعمل في أي من متاجره الثلاثة عشرة، فقررت أن أعمل في المتجر الواقع في الجادة الثانية في منطقة مانهاتن، القريبة على منطقة كوينز، حيث أعيش. أخبرني بأنه سيدفع لي ٦,٢٦ دولار في الساعة، وكان عليّ أن أرتدي الزي الرسمي الذي يتكون من قميص أسود ذي أكمام طويلة وقبعة أرتديتها فوق حجابي.

شكرت زياد كثيرًا لمنحي وظيفة، لكني بصدق كنت متوترة من فكرة العمل في متجر لبيع الأطعمة السريعة. ففي اليوم الأول لم أفعل شيئًا إلا الوقوف بجانب أمين الصندوق (الذي كان فلسطينيًّا) أراقبه كيف يعد القهوة والبوظة للزبائن. بكيت بصمت فلم أرغب في أن يراني أحد أعمل هناك كان علي مسح الطاولات وتنظيف الأرضية، مع أن هذا النوع من العمل يناسب المراهقين، وليس أمًّا لخمسة أطفال. أحببت العمل في الليل، فقليل من الناس يأتون للمتجر في منتصف الليل، ويمكنني أن أنظف دون أن يراني الكثيرون منهم، وكنت أستصعب كثيرًا تذكر جميع أحجام ونكهات البوظة وأنواع القهوة والدونت، وكنت أبكي كل ليلة في أول أسبوع. اشتكى أحد زملائي الأمريكيون السود إلى المدير، الذي كان مصريًّا، بأنني لا أعمل بفعالية، لكن المدير طمأنني، وقال لي: إن هذا الشاب دائمًا يشتكي، ولا داعي للقلق.

كان الأسبوع الثاني أسهل قليلًا، فقد أصبحت أتذكر أكثر، وبدأ المدير يعلمني العمل على ماكينة النقود (الكاشير). وبعد أسابيع عدة أخبرني زياد بأنه هو وزوجته يريداني أن أعطي دروسًا خاصة في اللغة العربية لأطفالهما الثلاثة، وسيدفعان لي ١٠ دولارات في الساعة. كان ذلك ساعتين في الأسبوع فقط، لكني لم أكن في وضع يسمح لي برفض أي مال إضافي. تم إعطاء بعض زملائي في العمل علاوات، أما راتبي فبقي كما هو، لكن لا يهم، فهذا العمل مجرد حل مؤقت حتى أتمكن من الحصول على عمل أفضل.

وفي أحد الأيام بعد الظهر التقيت في مقهى (ستاربكس) حزام وصفاء، صديقتيّ من المركز العربي الأمريكي. أحضرت صفاء صحيفة باللغة العربية، ورمتها على الطاولة، فالتقطتها، وتصفحتها، ولاحظت إعلانًا يقول:

«إن كنت تتحدث اللغة العربية فسوف تحصل على عمل جيد معنا».

كانت عبارة (الجيش الأمريكي) ورقم الهاتف مكتوبًا بخط صغير في الأسفل. اعتقدت أنهم يبحثون عن شخص ليعلم اللغة العربية أو يعمل مترجمًا، وهذا سيكون أفضل بكثير من

العمل في متجر (دنكن دونتس) لقاء ٦,٢٥ دولار في الساعة، فسألت صفاء إن كنت أستطيع الاحتفاظ بالصحيفة؟

وفي اليوم المقبل اتصلت بالرقم، ووجدت نفسي أتحدث مع شخص اسمه الرقيب (باريرا)، الذي عرض علي أن يلتقيني يوم الإثنين، لكن كان مكتبه يقع في ولاية نيوجيرسي. كان علي أن أستقل حافلة سفر لأذهب الى هناك، لكن احتمالية الحصول على وظيفة جيدة كانت تستحق عناء هذه الرحلة، وعندما ترجلت من الحافلة أضعت الطريق، واضطررت إلى أن أتوقف ثلاث مرات لأسأل الناس كيف أذهب إلى مكتب الجيش الأمريكي؟ قطّب الشخص الأول جبينه، واستغرب أن لديهم مكتبًا للجيش في الجوار، وأخبرني الثاني بأنني أمشي في الشارع الصحيح، أما الثالث فقد أخبرني بأن أرجع، وأنعطف يمينًا، ثم أمشي صفين من البيوت.

وفي النهاية وجدت نفسي أمام باب زجاجي ضخم وعلم أمريكي كبير في الواجهة الأمامية. دخلت المبنى، وسألت عن الرقيب (باريرا)، فخرج من مكتبه، وصافح يدي قائلًا:

«آه، أنت فدوى؟ نحن نبحث عن مترجم لغة عربية».

اعتقدت أنها وظيفة مدنية، لكنه بدأ يخبرني عن برنامج (زيرو ناين ليما) وأنهم سيتعاقدون معي مدة سنتين، لكن يجب عليّ أولًا أن أخضع لتدريب أساسي، وسأجني لاحقًا راتب دوام كامل. وسأحصل أيضًا بعد أن أنهي التدريب على علاوة مقدارها ١٠،٠٠٠ دولار ومبلغًا لأدفع تكاليف كليتي. مجرد سماعي بهذه المكافآت جعلني أشعر بالغنى. ثم سألني الرقيب باريرا مجموعة من الأسئلة.

«هل لديك أطفال؟».

«نعم، لكنهم لا يعيشون معي».

«هل أنت متزوجة؟».

«نعم».

«كم طفلًا لديك؟».

«خمسة».

«حسنًا، سنذكر اثنين فقط. فالجيش سيعطيك مالًا لطفلين فحسب، وليس للخمسة كلهم».

«أنا حاليًّا أدرس في كلية أيها الرقيب، ولن أتخرج قبل العام المقبل».

«لن تتمكني من الانتظار كل هذه المدة، فعليك أن تذهبي إلى منشأة (فورت جاسكون- أوكلاهوما في ولاية تكساس) لتخضعي للتدريب العسكري، وبعد انتهاء التدريب سوف يخبرونك أين ستتمركزين».

«أريد أن أسألك سؤالًا آخر مهمًّا قبل أن أوقع على أي شيء. إذا انضممت للجيش هل عليّ أن أنزع حجابي؟».

ذهب الرقيب (باريرا) ليسأل قائده، فأجابه لا مشكلة في ارتداء الحجاب. فوقعت العقد، وحددت لقاء آخر مع الرقيب (باريرا) لأن عليّ أن أقدم نسخًا عن شهادات ولادة أطفالي وبعض المعلومات الأخرى، عرض عليّ أن يلتقيني في متجر (دنكن دونتس).

أخبرت مديري عن قراري بالانضمام للجيش، فنظر إلي نظرة شك، وسألني:

«هل أنت متأكدة أنك تريدين فعل ذلك؟».

لم أدعه يردعني، وأجبته:

«سوف أجرب حظي».

التقاني الرقيب في متجر (دنكن دونتس) وأحضر زوجته معه، التي ابتسمت بحرارة لي، وقالت:

«أتدركين كم عيناك جميلتان؟!».

أخبرني الرقيب أن علي أن أسافر إلى مدينة (ألباني) لأخضع لاختبار كفاءة. وخيرني أن يذهب معي أو أذهب وحدي. وبعد أن فكرت قليلًا قررت أن أذهب لأرى صديقتي (جميلة) التي تعرفت إليها، عندما كنت أعيش في شمال نيويورك قبل سنين عدة، ثم سيأخذني الرقيب (باريرا) من مدينة سيراكوز إلى مدينة ألباني. تركت عملي في متجر (دنكن دونتس) وأعلمت كلية (برامسون أورت) أنني سأتوقف عن دراستي، وأيضًا أخبرت زميلتي في السكن بأنني سأرحل.

وفي بداية شهر شباط من عام ٢٠٠٤م ركبت الحافلة إلى مدينة سيراكوز، والتقيت صديقتي جميلة هناك. لكن بعد أن مضى يومان لم أسمع أخبارًا من الرقيب (باريرا). وبحلول اليوم الثالث لم تكن خدمة هاتفي الجوال مفعلة؛ لأنني لم أتوقع أنني سأحتاج إليها مدة أطول. فاستعملت هاتف جميلة لأتصل بالرقيب.

«لقد حاولت أن أتصل بك يا فدوى، فلدي أخبار سيئة، إن رؤسائي يخبرونني الآن أن عليك أن تخلعي حجابك».

صعقت بسماع ذلك، وقلت له:

«الآن تخبرني ذلك؟ لقد تركت كليتي وعملي ماذا يفترض بي أن أفعل الآن؟».

«أنا آسف».

«بمن اتصلت؟».

«بأشخاص في مراتب عليا ليس هناك أحد آخر أستطيع أن أسأله».

أغلقت سماعة الهاتف، وأنا مغمومة، وأخبرت جميلة بما حصل. بقيت عندها أسبوعًا؛ حتى تتاح لي بضعة أيام لأفكر في خطوتي المقبلة. وبعد ذلك ركبت الحافلة عائدة إلى مدينة نيويورك العاصمة، وأخبرت زميلتي في السكن بأنني غيرت رأيي بشأن الانضمام للجيش، ثم عدت الى كلية (برامسون أورت)، وطلبت أن أستعيد عملي في متجر (دنكن دونس). بدا المدير مرتاحًا لقراري، وقال لي:

«الجيش خطير جدًّا، ونحن لم نرغب في أن تذهبي أصلًا».

اتصلت بجون، معلم اللغة الإنجليزية في المركز العربي الأمريكي لتعزيز الأسرة، فقد كان خريج صحافة من جامعة كولومبيا، وأخبرته بما حصل، فانزعج كثيرًا، وقال:

«أعطِيني رقم هاتف الرقيب (باريرا). أريد أن أعرف لماذا لا يسمح لك بارتداء حجابك إن أردت الانضمام».

اتصل بالرقيب، ثم عاود الاتصال بي، وقال:

«قدّم لي سببًا سخيفًا. فقد قال: إن السبب هو أنك تستخدمين دبوسًا لربط حجابك، ومن المحتمل أن تؤذي نفسك».

«لكن يمكنني ارتداء حجابي دون دبوس».

«وقال أيضًا: إن على الجميع في الجيش أن يرتدوا الزي نفسه، ولا يمكن لأحد ارتداء أي شيء عدا الزي الرسمي».

«وماذا عن اليهود؟ والسيخ؟ ألا يمكنهم ارتداء أي شيء لغايات دينية؟».

«لا، على ما يبدو أنا لا أرى أي منطق في إجابتهم، لكنهم لن يغيروا رأيهم».

قررت أن أتخلى عن فكرة الانضمام للجيش، ورجعت أعمل في متجر (دنكن دونتس). لكني كنت أحتاج إلى دخل أكبر، لذلك بدأت أبحث في المدارس العربية في منطقة (برونكس) لأرى إن كانت لديهم وظائف شاغرة. وبضربة حظ وجدت وظيفة، وتمكنت من إجراء مقابلة مع المدير، الذي عرض عليّ أن أعمل فورًا معلمة، وقال لي:

«يمكنك الحصول على الوظيفة في أي وقت تصبحين فيه جاهزة للعمل. لكن قبل هذا أريدك أن تفهمي شيئًا واحدًا، وهو أننا لا ندفع الكثير هنا».

لم يسمح لي وضعي بالجدال حول هذا الأمر، لذلك قبلت الوظيفة بسعادة. كان عليّ أن أغادر شقتي عند الساعة ٥:٠٠ صباحًا كل يوم، وأستقل قطارات عدة لأصل إلى عملي، لكن كان الأمر يستحق ذلك. فقد عقدت صداقة مع معلمة روضة أطفال، كان اسمها نفس اسم أختي سميرة، واستطعت أيضًا أن أرتب مع معلمات أخريات لأعمل في أوقات لا تتعارض مع أوقات كليتي. عاملت الأطفال كأنهم أطفالي، وساعدتهم بعد انتهاء المدرسة. فعندما كنت صغيرة كنت أشعر بالتوتر خلال الامتحانات، لذلك بذلت جهدًا إضافيًّا لأجعلهم يشعرون براحة أكبر.

لم يكن المدير يمزح عندما قال: إن المدرسة لا تدفع الكثير، فقد اتضح أنهم لا يدفعون شيئًا أحيانًا، فلم يكن الآباء يدفعون رسوم تعليم أطفالهم في مواعيدها، ما يعني التأخر في تسلّم رواتبنا، وكانت هناك إشاعات بأن المدير يختلس بعض المال أيضًا.

كان الجميع في المدرسة يعتقد أن علي أن أجد رفيقًا لي. كان للمدير صديق اسمه (لطيف)، كان على ما يبدو يبحث هنا وهناك، وسأل زوجة المدير (وهي امرأة بنغلاديشية

كانت تعمل في المدرسة سكرتيرة) إن كنت متزوجة؟ وفي اليوم المقبل أخذتني زوجة المدير إلى مكتبها، وسألتني:

«هل هناك أحد في حياتك؟».

«لا، ولماذا تسألين؟ أنا لا أفكر في هذا الأمر حاليًّا، فأنا أحاول التركيز على إنهاء الكلية وتأسيس حياة لي».

ثم أخبرتني عن لطيف، وحثتني أن آخذ وقتي في إعادة التفكير في حاجتي لزوج. لكني قررت أن أتجاهلهم دون أن أقول علانية شيئًا يمكن أن يعطي المدير سببًا ليطردني، فأنا لم أرغب في أن أفقد عملي مرة أخرى.

أصبحت مقربة من سميرة وأمها، اللتين كانتا تعيشان بالقرب من المدرسة، وساعدتاني بإعطائي بعض البطانيات وبعض حاجات المطبخ. ثم بدأت أبحث، وأسال عن سكن بالقرب من المدرسة؛ حتى أتجنب المواصلات الطويلة من عملي وإليه، وأخبرت من قبل إحدى المدرسات بأن (لطيف) أكثر الناس معرفة بالأماكن؛ لأنه يعرف المنطقة، ويعمل في التجارة، كنت مترددة في أن أسأله، ولكن سميرة شجعتني أن أذهب معه لأرى الشقة، التي تبعد نحو صف واحد من البيوت عن المدرسة، وقالت لي:

«ليس من الضروري أن تخرجي في موعد معه، لكن ربما يمكنه مساعدتك».

مشيت مع لطيف، واستمعت بصمت، بينما كان يتكلم عن نفسه أخبرني بأنه كان طبيبًا في وطنه باكستان، وأنه لم يتزوج أبدًا، لكني لم أخبره بتفاصيل عن نفسي. ثم وصلنا إلى المبنى الذي فيه الشقة، وذهب لطيف للأعلى ليتحدث مع رجل سوري يملك ذلك المكان. كان لديه غرفة تدفئة تم تحويلها إلى شقة، وسيؤجرها لقاء ٦٠٠ دولار شهريًّا. وعندما لاحظ خيبة أملي عندما ذكر السعر سألني من أين أنا؟

«أنا من فلسطين، لكني ترعرعت في الأردن».

«حسنًا، في هذه الحالة تستحقين خصمًا؛ لأنك من أهل فلسطين سأخفض الإيجار لـ٥٠٠ دولار شهريًّا».

أمكنني تحمل هذا المبلغ، فقبلت العرض. وبعد بضعة أيام أتى لطيف بصديق له معه شاحنة صغيرة ليساعدني على الانتقال للشقة الجديدة، عرضت أن أدفع له، لكنه أصر على أن يسدي لي خدمة بصفتي (أخته المسلمة). قاد صديقه الشاحنة الصغيرة من منطقة كوينز إلى برونكس، واستقللت أنا ولطيف سيارة أجرة. ثم حملنا أمتعتي إلى شقتي الجديدة. بدأ لطيف يناديني بالأخت فدوى علامة على الاحترام، ما أشعرني بالراحة قليلًا، فقد بدا أنه غير مهتم بي رومانسيًّا، بقدر ما هو مهتم بي كأنني إحدى قريباته.

لكن سرعان ما أصبح لطيف يأتي للمدرسة كل يوم، وبدأت سميرة تطلق الدعابات حول احتمالية زواجنا.

رجوتها، قائلة: «توقفي يا سميرة!».

اعتقد المدير أننا رفيقان؛ لأن لطيف ساعدني على الانتقال. كان لطيف يتعامل في بيع وشراء مواد التموين للمحال، وكان يحضر للمدرسات واجبات خفيفة، هذا قبل أن أعمل في المدرسة، كما قالت لي سميرة، وفي أحد الأيام أحضر لطيف صندوقًا فيه أطعمة منوعة للمدرسة، وأعطاني إياه. فقدمت وأنا متضايقة بعض الأطعمة الخفيفة لزميلاتي، وشعرت بالحرج، بينما كانت سميرة تضحك، قائلة:

«زوجك الجديد ينادي عليك لتوزعي علينا الطعام! لا تنسي أن تعطيني بعض قطع الدجاج».

وبعد أن مضت بضعة أشهر على عملي في المدرسة استدعاني المدير إلى مكتبه، وقال لي:

«ما رأيك في لطيف يا فدوى؟ هل منحت نفسك وقتًا لتفكري فيه؟ إنه مهتم بك كما أخبرتك زوجتي، وأنا أعرف أنه يساعدك».

«لكن عرضت عليه أن أدفع له. وهو لم يساعدني إلا في الانتقال للشقة. أنا لا أريد أن أستغله أو ألعب بمشاعره، فكل ما أريده هو أن أركز على كليتي حاليًّا».

أصبح وجه المدير فاترًا ومتصلبًا كالحجر، وقال لي:

«إن أردت أن تحتفظي بوظيفتك عليك أن تتزوجي لطيف؛ فهو رجل جيد، ولا يستحق ألاعيبك».

سكت لحظة لأستجمع أفكاري قبل أن أجيبه، قائلة:

«دعني فقط أنهي حصص هذا اليوم، أنا لن أتزوجه».

بكى طلابي الصبيان والبنات، عندما أخبرتهم بأنني سأغادر. وأخبرتني سميرة بأنها لم تَرَ الطلاب يحبون معلمة لهذه الدرجة منذ أن عملت في هذه المدرسة. أثار كلامها مشاعري، لكنه لم يكن عزاء كبيرًا لي.

وعندما ذهبت للكلية انتظرت بعد انتهاء الحصة لأتحدث مع أستاذ التاريخ، وهو من أصل يهودي أمريكي، بجانب عمله مدرسًا في الكلية، فهو صجفي.

«هذه أخبار سيئة جدًّا يا فدوى. أريد أن أتصل بالمدير، وأتحدث معه إن لم يكن لديك مانع».

وفي اليوم المقبل اتصل به، لكن بالطبع أنكر المدير أنه حرمني من وظيفتي. لقد أخبر أستاذي بأنني كنت أستغل لطيف، لكنه لم يعترف بأنه هددني عندما رفضت الزواج بلطيف. ولسوء الحظ لم نستطع فعل شيء دون دليل؛ لذلك لم يكن لدي خيار إلا البدء في البحث عن عمل جديد. كنا عام ٢٠٠٤م، وقد مضى على عودتي إلى الولايات المتحدة عامين دون أن أرسخ موطئ قدم لي بعد.